

"ثقافة العنف في سوسيولوجيا السياسة الصهيونية" لعبد الغني عماد السيف يصنع "التاريخ المقدس"

اعتمد المؤلف المقاربة التحليلية/ التركيبية. فالكتاب تحليل مركب ايديولوجي/ سوسيولوجي لوظيفة الكيان الصهيوني وتكوينه البنيوي. انه، اذن، تحليل في البنية تكوينياً (المستوى الايديولوجي) ووظيفياً (المستوى السوسيولوجي). وهي مقاربة تستخدم مناهج علم اجتماع المعرفة لتحليل انماط السلوك العنفي الصهيوني، مما وفر للمؤلف امكان التحليل البنيوي/ الوظيفي. ووحدة التحليل هي العنف الذي يترجم، في تعبيره، "معطيات البنية الذهنية ومكوناتها المعرفية، الاسطورية منها والايديولوجية والسوسيولوجية"، فالعنف هو وسيلة الايديولوجيا لاعادة انتاج نفسها وتجديد بنيتها وضمان استمراريتها فيتحوّل بذلك الى حالة تكوينية فيها دائمة وعضوية.

الغاية من هذا الكتاب هي تحليل الكيان القائم على العنصرية والعنف، فاسرائيل كيان عنصري ارهابي بالطبيعة والتكوين والوظيفة وليست البتة دولة طبيعية كسائر الدول. انتجها العنف وبالعنف تستمر. بين هذا الكيان والعنصرية العنيفة قران عضوي وأبدي. العنصرية العنيفة العدوانية هي ضمان بقائها، تزول بزوال عنصريتها. ولم يتوصّل المؤلف الى الحقائق هذه بالعرض لصهيونية المبادئ والتعاليم والمعتقدات والأساطير بل بحفريات معرفية (اركيولوجيا المعرفة) لصهيونية الممارسة والوقائع.

يمتاز هذا الكتاب، أولاً، بدرسه صهيونية الحقائق وصهيونية الوقائع، أي صهيونية الخطاب وصهيونية الممارسة. يدرسها في الايديولوجيا وفي السوسيولوجيا، فيعقد رابطاً وظيفياً بين التحليل للأساطير او الميثاق المؤسسة ايديولوجيا للعنف الصهيوني والتحليل السوسيولوجي لممارسته واقعياً فوق ارض فلسطين.

ويمتاز، ثانياً، بمقارنته بين ما يسميه المؤلف "ايديولوجيا التكوين والنشأة وتدايعياتها المستمرة" وإشكالياتها المفتوحة على اللحظة الراهنة والآتية فيكشف عن واقع الكيان/ النموذج وأحلام آباء الصهيونية الأوائل المستقاة من ذهنية الزمن التوراتي المفقود ومأزق الكيان نتيجة ممارساته العنيفة الراهنة (الاعتقال، الاغتيال، الترانسفير، التهويد، التجريف، الاستيطان...) ومحاولة "المؤرخين الجدد" التي يعتبرها "محاولة لتفكيك النموذج ونقده، ليس بهدف استبداله أو ازالته، وانما بهدف تنقيته شوائبه وتخفيف تناقضاته واجراء عملية تجميلية يمكنها ان تجعل النموذج كياناً عادياً يجري تطبيعته تدريجياً وجعله اكثر مقبولية في محيطه بعد اخراجه من مأزقه الكياني والوجودي (...). و"المؤرخون الجدد" الذين شكلوا ظاهرة "ما بعد الصهيونية" هم التعبير الحقيقي عن المأزق الصهيوني الذي دفعت اليه انتفاضة الشعب الفلسطيني، وهذا المأزق يختزله سؤال اشكالي كبير: كيف "الاختيار او التوفيق بين الجيوبوليتيكا الصهيونية والتوراتية المفتوحة من جهة والجيوبوليتيكا الاسرائيلية المحدودة بامكانات الدولة وتوازنات القوة ومعطيات الصراع". فهاجس الصهيونية توسعي/ استيطاني وهاجس اسرائيل امني. كيف الاختيار او التوفيق بينهما؟ انه السؤال الاشكالي المعز عن المأزق الصهيوني/ الاسرائيلي.

قرأت في هذا الكتاب ما ادرجته تحت العناوين الآتية: أولاً: مرجعيات العنف الصهيوني، والمرجعية الأولى والأساسية هي نصوص توراتية تدور حول اسطورة "الشعب المختار" و"ارض الميعاد"، الأولى تحوّلت الى عقيدة صهيونية اصطفاوية استعلائية عدائية عنصرية، وتحولت الثانية بدورها الى عقيدة صهيونية تخصيصية لاهوتية اقصائية تدميرية اقتلاعية احلالية واستيطانية، تحريرية واسترجاعية (وايزمن: نحن لسنا بقادمين، ولكننا عائدون...).

تلك النصوص، وفق تفسيرها التلمودي، هي نصوص عدوانية لا تجد ترجمة لها واقعية سوى بالعنف والارهاب والعنصرية، حولها التفسير التلمودي الى طقوس وتعاليم وقوانين حرب، واهمها قانون الاستئصال والابادة. الجزية، الحصار، الضرب بحدّ السيف، الغنيمة، السبايا، القتل، الطرد، المحو، التخريب، الازلال، التهلكة، السحق... مصطلحات دالة على القسوة والعنف. هكذا بدا العنف ممارسة طقوسية وأساساً في القوانين الحربية تنفيذاً لأمر الرب!

انه العنف المقدس الذي نقلته الصهيونية من وهم الاسطورة الى وقائع التاريخ. الاسطورة تحوّلت الى تاريخ وظيفته انتاج ايديولوجيا العنف والعنصرية. وهكذا تتحوّل الميثولوجيا الى ايديولوجيا وثقافة. (الثقافة ايديولوجيا تحوّلت الى ممارسة).

المرجعية الثانية نصوص تلمودية تعليمية تحمل كل معاني الاستعلاء والعنصرية والعداء للشعوب كافة. تلك المعاني تعبر عن نفسها في النظرة الى الأغيار (الغوييم): خدم اليهود، نطفهم حيوانية، وثنيون، آمنون، ارواحهم شيطانية، لا يدخلون الجنة، لا حق لهم في السلطة، لا تجوز عليهم الشفقة، محظورة تحييتهم بالسلام، أموالهم مباحة، قتلهم لا يعد جريمة إنما فيه مرضاة لله

ومكافأة للقاتل بالخلود في الفردوس. وتلك النظرة الى الأغيار تؤصل نزعة العنف والاستعلاء العنصري. وترجمة هذه النزعة الى وقائع قتل واستئصال هي فعل إيماني/ طقوسي مقبول لدى الله كفعل من يقدم قرباناً اليه. هكذا نفهم البعد اللاهوتي في ثقافة العنف الصهيوني.

ثانياً: تعبيرات العنف الصهيوني، اشكالية بناء الكيان الارهابي. ان مصدر البعد اللاهوتي في ثقافة العنف الصهيوني هو الوعد الالهي. الصهيونية، اذن، ذات منشأ لاهوتي/ ميثولوجي وتبقى أسيرة هذه الدائرة الاعتقادية الدوغماتية ما لم تأخذ تعبيرها المادي او الواقعي في شكل دولة، مما يقتضي تحويلها الى حركة استنهاض قومي/ عنصري واستجماع شتات إنتي/ ديني وإحياء أمة واستعادة أرض وبناء دولة واستئناف مسيرة الخلاص! وبذلك، على ما يقول المؤلف، "طرحت الصهيونية نفسها كحلّ للمسألة اليهودية. قدمت مشروعها القومي الذي ترجمه شعار: لا يمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة في أي مجتمع حديث خارج فلسطين (...)"

هذه الحركة الاستنهاضية الاجتماعية الاحيائية الاستعادية قامت على فكرة العنصرية والقوميات الشوفينية وصراع الاعراق الذي يحرك التاريخ (موسى هيس) وعلى فكرة ارتقاء العنصر اليهودي اللامدمج (هرتزل، مؤسس الصهيونية، وبن غوريون، مؤسس الدولة). واستدعت فكرتا صراع الاعراق والعرق المتفوق "عودة" (نقول استجلاب) اليهودي من الدياسبورا الى ارض الميعاد و"تحريرها" (نقول احتلالها واغتصابها) من "الطارين عليها" (نقول اصحابها وابنائها الأصليين والشرعيين). الخط البياني، اذن، من اللاهوت الى الدولة هو هذا: لاهوت فسياسة فحركة فدولة. اما الوسائل فهي عنفية/ اراهبية فكرياً ومعنوياً ومادياً وفي كل الاتجاهات، حيال اليهود الذين لم يكونوا في داخل الحركة، وحيال اوروبا الغربية والشرقية، وحيال العرب عامة والفلسطينيين خاصة. ويظهر المكون العنفي في اللاهوت في قوة عندما يتحول اللاهوت الى برنامج سياسي وحركة قومية ومشروع كيان عنصري يلقي تأييداً وتبنيًا من حركات الاستعمار الغربي بدءاً ب نابوليون الذي "كان أول رجل دولة يقترح اقامة دولة يهودية في فلسطين" عام ١٧٩٩ وانتهاء ببلفور ١٩١٧ وما كان للمكون العنفي في اللاهوت الصهيوني ليتمكن من بناء "الدولة" لولا حركة الاستعمار الغربي، الاوروبي والاميركي، في القرنين التاسع عشر والعشرين، التي أدركت حاجتها الى قوة استيطانية تقيها الخطر الكامن في البحر المتوسط الذي يعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية شعب واحد تتوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان والارث الثوري والثروة الطبيعية.

وجدت حركة الاستعمار في الكيان الصهيوني قوة قادرة على إبقاء الوطن العربي مفككاً ومتخلفاً ومفصلاً مغربه عن مشرقه. لذا كان الحل البديهي يتلخص بحسب المؤلف، في "اخراج اليهود من اوروبا وتوظيفهم في خدمة المشروع الاستيطاني. مما يعني نقل فائض بشري لا وظيفة له الى مكان استراتيجي (فلسطين) يؤسس لدولة استيطانية تقوم بوظيفة حيوية هي الدفاع عن المصالح الغربية". وبذلك اسندت الى الكيان الصهيوني وظيفة جديدة فبات يمارس الى جانب العنف اللاهوتي العنف الاستعماري. ولعل هذه الحقيقة توضح اشكالية بناء الكيان العنصري/ الارهابي كنموذج ديني/ استعماري.

ثالثاً: ثقافة العنف متحد المتجمع الصهيوني. يفتقر الصهيوني الى شخصية قومية. انه كيان سياسي استجمعت فيه جماعات تأصلت في لاوعياها والممارسة ثقافة القوة والعنف والعدوان (يهود غربيون أشكناز، يهود شرقيون سفرديم، يهود حبشيون فالاشا، يهود ملونون، يهود هنود، يهود خزر أتراك...).

- الجانب المعرفي في هذه الثقافة جانب عنفي/ تمييزي/ عنصري (يهود # أغيار).
- الجانب الانفعالي (السيكولوجي) في هذه الثقافة جانب عنفي/ مرضي، فصامي وعصابي، يعبر عن نفسه في المؤسسة السياسية والمؤسسة العسكرية والمؤسسة الدينية والمؤسسة التربوية.
- الجانب السلوكي في هذه الثقافة جانب عنفي/ نرسيسي/ مازوشي يعبر عن نفسه في التعامل التاريخي واليومي مع الذات والآخر.

المجتمع الصهيوني، اذن، ليس مجتمعاً عضوياً او بنوياً كونته جماعة قومية بل هو كيان سياسي مصطنع استجلبت اليه جماعات وحدتها ثقافة العنف بجوانبها المعرفية والانفعالية والسلوكية. رابعاً: التاريخ المقدس منتج الصهيونية او القومية اليهودية العنصرية. تاريخ الصهاينة تاريخ مقدس! انه، في اعتقادهم طبعاً، يعبر عن ارادة الرب، بل انه من صنعه! وفلسطين هي مساحته الجغرافية (هكذا يدعون) التي تتم فوقها ترجمة المفاهيم التلمودية ويتم تحقيق الوعد التوراتي. والمقدس يحول التاريخ الى قوة عنف وارهاب. فالمقدس جعل الصهاينة ينظرون الى فلسطين "ارضاً بلا شعب لشعب بلا ارض" له "تاريخ مقدس" يبحث عن ارض الميعاد لاستعادة زمنه المفقود وانجاز خلاصه! والتاريخ المقدس يلغي التاريخ يزوره ويشطب ما عداه. بدأ لم يبق التاريخ ظواهر ووقائع، بل رواية، بل مجرد أو هام وتصورات تبنى فوقها سياسات وثقافات تجسدها ممارسات عنفية تجعل "كل جريمة شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب" يقول المؤلف.

الإيمان بالتاريخ المقدس وتعليمه يصنعان أبشع صور التطرف والتعصب العنصري وإبادة الآخر. والعنصرية لا تنشأ ولا تنمو تلقائياً لأن جذورها ضاربة في عمق "المقدس الصهيوني"، ويتحكم العنف اللاهوتي في حركة التاريخ فيجعل الصهاينة عنصريين وانغلاقيين مع الذات وعدوانيين استنصاليين مع الآخر.

يذكر المؤلف كلاماً لفلاذيمير زنيف جابونتسكي (١٨٨٠ - ١٩٤٠) فيلسوف العنف والارهاب في الحركة الصهيونية، قاله لمستشار الطلبة اليهود في فيينا: "تستطيع ان تلغي كل شيء: القبعات والأحزمة الملونة (...). أما السيف فلا يمكن الغاؤه. عليكم

أن تحتفظوا بالسيف. فالاحتلال بالسيف ليس ابتكاراً "ألمانياً" بل هو ملك لأجدادنا الأوائل. ان السيف والتوراة قد نزلا علينا من السماء". السيف النازل عليهم من السماء يجسد كل مضامين العنف وأساليبه في اللاهوت الصهيوني. السيف يصنع "التاريخ المقدس"، والسيف رمز العنف اللاهوتي "انه تجسيد مادي للحياة في أنقى معانيها (يتشفسكي ١٨٦٥ - ١٩٢١)، والسيف، رمزاً، وسيلة تعبئة عنصرية للذات ووسيلة إبادة جماعية للآخر. ينمي دافع الاحتلال وغريزة الإبادة. قطبا الجدلية التي تحرك العقل السياسي الصهيوني هما الاحتلال والابادة، وبذلك يكون السيف خير مفسر للتوراة في اللاهوت الصهيوني (بن غوريون: ان خير مفسر ومعلق على التوراة هو الجيش). "السيف"، في مدلوله التاريخي، أو "الجيش" في مدلوله الراهن، أي العنف هو الذي يترجم التوراة صهيونياً ويخلق المتحد الاجتماعي للمجتمع العنصري.

خامساً: الترحيل (ترانسفير) وسيلة العنف الملازم للاحتلال وللإبادة في السياسة الصهيونية. الصهيونية حركة استيطانية احتلت الارض وأبادت الشعب أو رحلته ومن بقي منه في أرضه فهو، وفق استراتيجيتها التاريخية، مشروع إبادة وترحيل في أي لحظة. إبادة الشعب الفلسطيني أو ترحيله هو حلها التاريخي والجنري والنهائي. و"تطهير الأرض" من الفلسطينيين فرض الهي وواجب واجراء من دونه لن يتحقق لليهود الصهاينة انبعاثهم القومي ولن تتحقق تالياً ارادة الله! ان ربط تحقيق الانبعاث القومي بتحقيق ارادة الله هو الذي يجعل الاجراءات العنصرية (إبادة وترحيل) اجراءات مباركة من لدن الرب. وهذا من مبادئ التقديس التلمودي وتعاليمه الحتمية. ان ثقافة العنف المعبر عنها بالاقتراع والتهمير والترحيل وفق تلك المبادئ والتعاليم جسدتها حركة الحاخام منير كاهانا الذي يذكر له المؤلف تصريحات أعلنها في مستعمرة "كرني شومرون" في الضفة الغربية في ١٥ ايار ١٩٨٥ "العرب سرطان في قلب الأمة وينمون في سرعة مخيفة. عرب اسرائيل تدنيس صارخ لاسم الله. عدم تسليمهم بالسيادة اليهودية على ارض اسرائيل هو رفض لسيادة إله اسرائيل ولمملكته. ان نقلهم من البلد هو اكثر من مسألة سياسية. انه مسألة دينية، واجب ديني، أمر لازمة تدنيس اسم الله. وبدلاً من القلق بشأن ردود فعل الأمم من غير اليهود لو عملنا على طردهم، علينا الارتعاد من مجرد التفكير في غضب الله إن لم نفعل. ستحل الولايات علينا إن لم نطرد العرب من البلاد. اذ يمكن الاسترداد أن يأتي فوراً وبمجده الكلي، لو عملنا ما يأمر به الله. لنسرع الاسترداد(...)". والاسترداد يعني تطهير الأرض من الفلسطينيين عبر ابادتهم أو ترحيلهم. والفعل الاستردادي/ التطهيري متأصل في اللاهوت الصهيوني تغذيه وتشحنه ممارسات التحالف العنفي القائم بين الدين والسياسة والسيف.

سادساً: تداعيات العنف في مرحلة "ما بعد الصهيونية"، العنف يرتد قتلاً لأصحابه وسجالات حول مصير الكيان. عنوان مرحلة "ما بعد الصهيونية" هو تجاوز الأساطير في اتجاه السلام مع العرب. هذا العنوان بدأ في التشكل او الارتسام مع حرب حزيران وتبلور حركة سلمية مع حرب تشرين. الاتجاه السلمي تعمق في المجتمع الاسرائيلي مع غزو لبنان عام ١٩٨٢ وتقرر الانتفاضة الاولى عام ١٩٨٧ ثم الثانية عام ٢٠٠٠ ورداً على العنف الصهيوني، المقاومة في الجنوب اللبناني، والانتفاضة في الداخل الفلسطيني، والصواريخ العراقية التي ضربت في عمق اسرائيل، احدثت ذعراً كبيراً في المجتمع الاسرائيلي. أدرك هذا المجتمع المذعور كما هو واضح في كتاب شمعون بيريز "الشرق الأوسط الجديد" ان زمن العنف الصهيوني بلا رد مقاوم من حجه وقبيله قد انتهى، وان ثمة جهوزية استشهادية من نوع جديد غيرت ادوات واستراتيجيات المواجهة الكلاسيكية. أفرز المجتمع المذعور اتجاهين في السياسة الاسرائيلية، اتجاه السيطرة بالاقتصاد واتجاه استمرار السيطرة بالقوة والعنف. اتجاه السوق واتجاه القلعة. واتاح هذا الفرز "للسوسيولوجيين الجدد" أن يتوقفوا عند نظرتين اسرائيليتين للعلاقة بالعرب: عنفية من موقع الصراع بالقوة من أجل البقاء، وسلمية من موقع الرهان على إمكان تعايش عربي/اسرائيلي.

هنا يورد المؤلف كلاماً قاله يارون ازراحي في كتابه "رصاصات المطاط" تدليلاً على هذا الانقسام في النظرة الى العلاقة بالعرب: "... اما ما يحمل دلالة اكثر فعلية فكان ذلك الانشطار النصفي في البلاد بين كتلة العمل وكتلة الليكود، وهاتان الكتلتان تمثلان نظرتين يهوديتين الى العالم، إحداهما أُسست وترسخت في ذاكرة مديدة من الاضطهاد والمجازر والصراع المرير من أجل البقاء، فاصطبغت بنشأوم حاد وانعدام الثقة بغير اليهود، في مقابل الثقة اليقينية بقوة اليهود وحدهم والتعويل على تضامنهم في وجه الآخرين. والأخرى ترعرعت في مناخ الصيغ الخلاصية بعد تعلمنها، ممزوجة بفكرة التقدم التنويرية، واحساس عميق بحدود القوة العسكرية والمراهنة على امكان صناعة تعايش عربي/اسرائيلي (...)".

الاولى وجهة نظر عنفية ثأرية محكومة بالماضي (بيغن، شارون). الثانية وجهة نظر سلمية ديموقراطية محكومة بالمستقبل (رايين، بيريز).

مرحلة "ما بعد الصهيونية" هي من انتاج النظرة الثانية التي بلورتها وعمقتها مراجعات نقدية قامت بها مجموعة "المؤرخين والسوسيولوجيين والأدباء الجدد" الذين يعبرون عن مرحلة انتقال السياسة الاسرائيلية من الايديولوجيا الى السوسيولوجيا، من التفكير الاسطوري الى التفكير الواقعي.

هل ان دلالات هذا الانتقال هي التأسيس لصهيونية جديدة أم هي التأسيس لحركة ثقافية نقدية معادية لها؟ من غير الممكن الاجابة عن هذا السؤال باليقين المبرم.

يرى المؤلف "ان مواقف المثقفين العرب ازاء هذه الظاهرة (ادوار سعيد، وليد الخالدي، الياس صنبر) هي في طور التشكل ويطغى عليها الارتياب"، مع اشارته الى ان بعضهم (كلوفيس مقصود) يرى ان دور اصحاب تلك الظاهرة هو حماية المشروع الصهيوني، ونحن كذلك من اصحاب هذا الرأي.

خلاصات وافاق:

"... ان تفكيك الشخصية الصهيونية وقراءة تضاريسها وكشف جذور المفاهيم البنيوية التي تشكل ذهنيها المعرفية لا يمكنها ان تكتمل الا من خلال اخضاع الأثر التوراتي والمحمول الثقافي الاسطوري لليهودية للتحليل والقراءة النقدية (...)." "اسرائيل هي اول دولة دينية في العالم ينشئها علمانيون". "فكرة "الاختيار" تخرج اليهود من دائرة الشعوب العادية". "العنف في الثقافة الصهيونية هو حاجة وحقيقة وضرورة وقيمة". "الغاء الآخر في الحالة الصهيونية هدف وعصر بنيوي في الثقافة والفكر والايديولوجيا ومكون من مكوناتها المعرفية والذهنية". "ان التكوين الصهيوني - الاسرائيلي يتعارض مع قواعد نشوء الظواهر السوسولوجية والسياسية (مجتمع فايدولوجيا فكيان طبيعي، ايديولوجيا فمجتمع فكيان مصطنع). "بنو اسرائيل ظهروا الى حيز الوجود كشعب أولاً ثم اتجهوا الى فلسطين ليجعلوا منها وطناً. الوطن بدأ وعداً ثم استوطن فكرة في الذهن". "من الوهم تصور اسرائيل بلا صهيونية رغم كل الضجيج الذي يثيره المؤرخون الجدد ودعاة السلم الاسرائيلي".

ساسين عساف

(* صدر في منشورات "دار الطليعة"، ٢٠٠١.

(**) ألقبت هذه المداخلة النقدية في ندوة مناقشة حول كتاب "ثقافة العنف في سوسولوجيا السياسة الصهيونية" ودعا اليها "المركز الوطني للدراسات" (في مركز توفيق طيارة) وشارك فيها الى الدكتور ساسين عساف كل من المؤرخ عصام شبارو والشاعر طارق آل ناصر الدين.

[الصفحة الأولى](#) | [مجلات سياسية](#) | [اقتصاد-مال-أعمال](#) | [العرب والعالم](#) | [قضايا النهار](#) | [القضاء والقدر](#) | [ندوة مقالات](#) | [المقسم ١٩](#) | [وراء الحدث](#) | [مذاهب وأديان](#) | [تحقيق](#) | [مناطق](#) | [بيئة وتراث](#) | [مفكرة](#) | [ادب-فكر-فن](#) | [مدنيات-تربويات](#) | [وفيات](#) | [رياضة](#) | [حول العلم والعالم](#) | [مساعدة](#) | [النهار الرياضي](#) | [نهار الانترنت](#) | [الدليل](#) | [الملحق الثقافي](#) | [سلامتك](#) | [الاغتراب اللبناني](#) | [الصفحة الرئيسية](#)

[PDF Edition \(Arabic\)](#) | [HTML Edition \(Arabic\)](#) | [Listen to An-Nahar](#) | [Ad Rates](#) | [naharpost](#) | [Classified Ads](#) | [Archives](#) | [Contact us](#) | [Feedback](#) | [About us](#) | [Main](#) | [Help](#)
